شخصيّة الحاكم بأمر الله والخلاف حولها

الطالب الثاني- – شخصيّة الحاكم بأمر الله شخصيّة عاديّة قياديّة دينيّة (المؤيّد)

مع / التفسير "أ"

الطالب الأوّل –شخصيّة الحاكم بأمر الله شخصيّة غريبة الأطوار(المعارض)

ضدّ/ التفسير "ب"

وصف الموضوعة/ المسألة/ المعضلة

الخلاف حول شخصيّة الحاكم بأمر الله

يتّضحُ مِنَ الوثائقِ المختلفةِ والمقبولةِ على الموحّدينَ الدروزِ، باعتبارِها وثائقَ صحيحةً صادقةً، أنّ معظمَ أتباعِ التيّارِ الإسماعيليّ قد أثنَوْا على الخليفةِ الحاكمِ (ع) ومدحوهُ، واعترفوا بأهمّيّةِ دورِهِ كإمامٍ، حتّى في أيّامِ حكمِهِ. ويظهرُ مِن هٰذهِ الوثائقِ أنّ الحاكمَ (ع) شخصيّةٌ رائعةٌ، وزعيمٌ قويٌّ، حكمَ المواطنينَ بحزمٍ وصرامةٍ. كانَ على رأسِ ما طمحَ إليهِ هٰذا الخليفةُ تأسيسُ مجتمعٍ صالحٍ وعادلٍ في مصرَ؛ ولهٰذا، فقدْ قرّرَ أنْ يكونَ يقظًا لِما يجري، وواعيًا لِما يحدثُ في دولتِهِ، فجعلَ أبوابَ قصرِهِ مفتوحةً في وجهِ الجميعِ، كما اعتادَ التجوُّلَ في شوارعِ القاهرةِ، والإصغاءَ إلى المشاكلِ والصعوباتِ اليوميّةِ التي يوجهها المواطِنون.

انتهجَ الحاكمُ (ع)، البساطةَ في لباسِهِ وطريقةِ حياتِهِ، ونزعَ في سنواتِهِ الأخيرةِ إلى التوحُّدِ، والانغلاقِ على نفسِهِ، والتنسّكِ، والتواضعِ، ولم تكُنْ حياتُهُ حياةَ ترفٍ وبذخٍ، تطغى عليْها الكماليّاتُ والشكليّاتُ والرسميّاتُ، التي تحفُّ عادةً بحياةِ الحكّامِ والرؤساء. فعلى سبيلِ المثالِ، قرّرَ الحاكمُ اعتبارًا مِن عامِ 1009 م التنازلَ نهائيًّا عن لباسِ الخليفةِ الفاخرِ الذي كانَ بحوزتِهِ، وعنِ الولائمِ الكبيرةِ التي كانتْ تُعَدُّ لهُ، وعن كلّ أموالِهِ؛ وراحَ يرتدي ملابسَ متواضعةً بسيطةً، كما اكتفى بالقليلِ. معَ ذلكَ، وعلى الرغمِ مِن تنسُّكِهِ، أصرَّ الحاكمُ على أنْ يكونَ مطّلِعًا على حياةِ المجتمعِ المصريّ، وعلى المشاركةِ فيها بشكلٍ فاعل.

يَعتبرُ الموحّدونَ الدروزُ الحاكمَ (ع)، شخصيّةً قياديّةً دينيّةً متميّزة. فحتّى تعاليمُهُ الصارمةُ هيَ، بالنسبةِ لَهُم، تعبيرٌ عن كونِهِ موجّهًا توجيهًا سماويًّا ربّانيًّا رشيدًا. صحيح أنّه غلب الغموض والرمزيّة على بعض تعاليمه، لكنّ مذهب التوحيد الدرزيّ يحتّمُ القبولَ بها كما هو، والاعترافَ بأنّ ثمّةَ أمورًا أسمى مِن حكمةِ الإنسانِ، وهيَ من الرموز والإشارات الدينيّة التي لا يُمكِنُ فهمُها وإدراكُ حقيقتِها إلّا عن طريقِ التعمُّقِ في التوحيد وأسرارِ المذهب.

الخلافُ حولَ شخصيّةِ الحاكم (ع)

تعتبر شخصيّة الحاكم بأمر الله وأسلوب حياته وصفاته المختلفة مثار جدل وخلاف بين الباحثين والمؤرّخين حتّى اليوم.

رأى قسم من المؤرّخين المسلمين الذين عاصروا الحاكم (ع) والذي سار في ركبهم واقتفوا أثرهم مجموعة من الباحثين المعاصرين في هذه الخليفة شخصيّة غريبة الأطوار وشكّكوا في كونه إنسانًا سويّ العقل. من جهة أخرى يدّعي باحثون آخرون ومنهم الموحّدون الدروز أنّ هذه الوثائق لا تعكس الواقع بشكل موضوعيّ ونزيه وأنّ هناك دوافع مغرضة وراء هذه الوثائق وأصحابها، ويرى الموحّدون أنّ تصرّفات الحاكم وسياسته التي يمكن أن تبدو متطرّفة في عيون معاصرة كانت جزءًا من نمط سلوكيّ مقبول ومعتاد في ذلك العصر ولا يختلف كثيرًا عن حكام آخرين في تلك الفترة وليس أكثر صرامة منهم (طاقم التراث الدرزي، 2015: ص 142-143).

ما زالت شخصيّته حتّى يومنا هذا غامضة، وخاصةً قصّة موته أو اختفائه. لم يدع يترك أيّ أثر أو شاهد أنّه قال: "أنا ربّكم الأعلى"، بل منع مناداته بلقب مولانا، وأمر بمناداته: "السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته"، ونهى عن تقبيل يده والسجود والركوع أمامه. أنصفه بعض المؤرخين وقالوا إنّه سبق عصره بقرون في محاولته إدخال إصلاحات يفتخر بها العالم المتحضّر اليوم، مثل تحرير العبيد والحرّية و المساواة والعدل، والتّسامح الد يني، ومركزيّة العلم والمعرفة، وتحمّل المسؤولية، وشدّة عقاب المنحرفين، وضبط الأمان، والتّواضع، ومنع التّبذير

والبهرجة، والعطف على الفقراء. كانت تبدو قراراته أحيانًا متناقضة وغير متناسقة، حيث قرّب إليه أصحاب مهن من أهل الذّمة، ثمّ فرض عليهم القيود (لبيب صالح ورجا فرج، 2021: ص101-103).

مع / التفسير "أ"

يَعتبرُ الموحّدونَ الدروزُ الحاكمَ (ع)، شخصيّةً قياديّةً دينيّةً متميّزة. فحتّى تعاليمُهُ الصارمةُ هيَ، بالنسبةِ لَهُم، تعبيرٌ عن كونِهِ موجّهًا توجيهًا سماويًّا ربّانيًّا رشيدًا.
صحيح أنّه غلب الغموض والرمزيّة على بعض تعاليمه، لكنّ مذهب التوحيد الدرزيّ يحتّمُ القبولَ بها كما هي، والاعترافَ بأنّ ثمّةَ أمورًا أسمى مِن حكمةِ الإنسانِ، وهيَ من الرموز والإشارات الدينيّة التي لا يُمكِنُ فهمُها وإدراكُ حقيقتِها إلّا عن طريقِ التعمُّقِ في التوحيد وأسرارِ المذهب.
كما أجرى الحاكم خلال فترة حكمه إصلاحات كثيرة ومختلفة في مجالات عديدة ومختلفة منها النظام أو الاقتصاد أو المجتمع بهدف إصلاح المجتمع الفاطميّ، وعمل على إخراجها الى حيّز التنفيذ بطرق مختلفة وممّا فعله إصدار قوانين كثيرة لتنظيم نواحي الحياة في المجتمع والعمل على تطبيقها. يمكن فهم تعاليم الحاكم ورؤياه من خلال الأعمال والأنشطة الأساسيّة التي قام بها خلال حكمه. من هذه الإنجازات وضع هيكليّة تنظيميّة جديدة لأجهزة الحكم وزاد من تدخّل الخليفة في تعيين الموظّفين واتّخاذ القرارات الإداريّة من أجل القضاء على الفساد في نظام الحكم وتحسين نجاعة هذا الجهاز، وشدّد العقوبات المفروضة على المواطنين الذين أساءوا استخدام أموال الدولة أو ظلموا المواطنين، كما وبنى المستشفيات والمدارس والجسور وغيرها (التراث التوحيدي للمرحلة الثانوية، 2015: ص 130-134).
لقد تحيّر العلماء في مواقف الحاكم بأمر الله، واختلفت كلمتهم حول الحكم عليه، حيث رفعه قوم إلى درجة الألوهيّة، وهم الدروز.
واعتقد منهم قوم أنّه إمام المسلمين، وخليفة ربّ العالمين، وهم الإسماعيليّة الفاطميّون.
وذهب أكثر المؤرّخين إلى أنّه كان شاذّ الطباع، مريض العقل، يأتي بأعمال تُضحك الثكلى تدلّ على الجنون.
ولكن بالنظر إلى مدّة حكمه، حيث حكم من سنة 386 إلى سنة 411 هـ، يظهر أنّ الاعتذار عنه بأنّه كان مجنونًا؛ كلام لا يُلتفت إليه؛ لأنّه من المحال أن يبقى في

ضدّ/ التفسير "ب"

شخصيّة الحاكم بأمر الله شخصيّة غريبة الأطوار، وذلك بسبب تصرّفاته وسياسته وبسبب القسوة والقوّة التي كان يتّبعها مع رعاياه واعتبروا شخصيّته غير مستقرّة أو متّزنة تنطوي على الاختلال معتمدين في ذلك على مسالة الطاعة المطلقة التي فرضها على رعيّته ومواطني دولته. والرعب الذي بثّه في صدور مرؤوسيه، وملاحقته لمعارضيه، ومعاقبتهم، واضطهادهم.
كانت شخصية الحاكم متناقضة، متضادّة، وكان كثير التلوّن في أفعاله وأحكامه وأقواله، ولذا تميّز عهده بغرابة أطواره، والذي تمثّل بإصداره للعديد من القوانين الغريبة مثل تحريمه أكل الملوخيّة، وأمره الناس بالعمل ليلًا، والنوم نهارًا.
وكان الحاكم بأمر الله جبّارًا عنيدًا، وشيطانًا مريدًا، كثير التلوّن في أقواله وأفعاله، ولم تقتصر تناقضات وخرف الحاكم على المسلمين فقط، بل امتدّت لأهل الكتاب، فقد أمر سنة 398هـ بتخريب كنيسة القيامة ببيت المقدس، وأجبر اليهود والنصارى على الدخول في الإسلام أو الرحيل عن البلاد، فهاجر كثير منهم إلى أوروبّا وبيزنطة، ثمّ عاد وأباح لهم الرجوع لدينهم وتعمير كنائسهم التي خرّبها وقال مبرّرًا ذلك: "ننزّه مساجدنا أن يدخلها من لا نيّة له ولا نعرف باطنه".
ومن قبائح الحاكم بأمر الله أنّه بنى المدارس، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثمّ قتلهم وخرّبها، وألزم الناس بإغلاق الأسواق نهارًا، وفتحها ليلًا، فامتثلوا لذلك دهرًا طويلًا حتّى اجتاز مرّة بشيخ يعمل النجارة أثناء النهار، فوقف عليه، وقال: ألم ننهكم عن هذا!. فقال: يا سيّدي.. أما كان الناس يسهرون لما كانوا يعيشون بالنهار. فهذا من جملة السهر. فتبسّم الحاكم وتركه، وبعدها أعاد الناس إلى أمرهم الأوّل.
وكان الحاكم بأمر الله يعمل الحسبة بنفسه يدور في الأسواق على حمار له، وكان لا يركب إلّا حمارًا، فمن وجده قد غشّ في معيشته أمَرَ عبدًا أسودَ معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى.
كان الحاكم يروم من وراء أوامره المتضادّة اختبار الناس ليرى مدى استعدادهم لطاعته ومنتهى هذا الخضوع والطاعة (قصّة الحاكم بأمر الله. قصة الإسلام).

الحكم شخص مجنون مدّة تصل إلى خمس وعشرين سنة (قصّة الحاكم بأمر الله. قصة الإسلام).

كانت خلافة الحاكم متضادّة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبّة للعلم وانتقام من العلماء، وميل الى الإصلاح، وقتل الصلحاء، في هذه الصورة وأمثالها تقدّم الرواية الإسلاميّة إلينا الحاكم، وفي تصرّفاته ما يبرّر كثيرًا من الأوصاف المثيرة والغامضة (عبد الرحمن بن خلدون، 2006: ج 4، ص: 60)

نقاش مشترَك

بعد المناقشة المشتركة، توصّلنا إلى اتّفاق حول مسألة شخصيّة الحاكم بأمر الله: إنّ شخصيّته ليست شخصيّة غريبة الأطوار وإنّما شخصيّة قياديّة دينيّة عملت الكثير من الإصلاحات والإنجازات لإصلاح الدولة الفاطميّة من جميع النواحي.

من ناحية أولى: لا يمكن القول بشكل رسمي وفعليّ إنّ الحاكم (ع) قد كان قاسيًا وشديدًا في فرض عقوباته على الموظّفين معتمِدينَ في موقفِهِم هٰذا على مسألةِ الطاعةِ المُطلَقةِ التي فرضَها على رعيّتِهِ ومُواطِني دولتِهِ، والرعبِ الذي بثّهُ في صدورِ مرؤوسيهِ، وملاحقتِهِ لمعارضيهِ واضطهادِهِم، بل من منطلق العدالة الاجتماعيّة وفرض القوانين والنظام في الدولة.

ومن ناحية أخرى: لا يمكن القول بشكل رسميّ إنّ الحاكم (ع) كما اعتبروهُ شخصيّةً قاسيةً وغيرَ مستقرّةٍ أو غير متّزِنةٍ، تنطوي على اختلالٍ. وذلك بالعودة إلى المؤرّخين الذين يقولون إنّه كان شاذّ الطباع، مريض العقل، يأتي بأعمال تُضحك الثكلى تدلّ على الجنون.

ولكن بالنظر إلى مدّة حكمه، حيث حكم من سنة هـ 386 إلى سنة 411 هـ، يظهر أنّ الاعتذار عنه بأنّه كان مجنونًا؛ كلام لا يُلتفت إليه؛ لأنّه من المحال أن يبقى في الحكم شخص مجنون مدّة تصل إلى خمس وعشرين سنة (قصّة الحاكم بأمر الله. قصة الإسلام).

يمكن تلخيص الادّعاءين بشكل مشترك وبعد الاطّلاع على المصادر الموثوقة والتي تدعم الموقفين معًا، بأنّ شخصيّة الحاكم بأمر الله شخصيّة دينيّة وقياديّة كان من منطلق تطوير وتنظيم هيكليّة جهاز الحكم والدولة وتطوير الدولة من نواحي أخرى وازدهارها أسوة ببقيّة دول المغرب العربيّ كالعلم والثقافة والسياسة، ومن ناحية أخرى كان بهدف إصلاح الدولة وإنشاء مجتمع دينيّ أخلاقيّ صالح وعادل.

المصادر / النصوص

1. طاقم التراث الدرزيّ، التراث التوحيديّ كتاب تعليميّ للصفوف الثانويّة دار النشر القدس, 2015.
2. لبيب صالح ورجا فرج (محرّران), فصول في تاريخ الإسلام وتاريخ الموحّدين الدروز لصفوف العاشر في المدارس التربويّة الدرزيّة (مركز زلمن شزار لبحوث تاريخ الشعب اليهوديّ, القدس.2021), ص: 103-101.
3. عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون (دار الفكر للطباعة والنشر, 2006) ج 4 ص 60.
4. قصّة الحاكم بأمر الله، قصّة الإسلام
https://islamstory.com/ar/artical/21038/cat-%D8%B1%D8%AC%D8%A8